النهضة العربية

القومية وأثرها الادبي

انيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

﴿ توطئة ﴾ للعرب في تاريخهم القديم ثلاث نهضات بارزة . الاولى دينية مهدها الحجاز وقد بلغت اوجها بظهور الاسلام وانتشاره في قسم كبير من المعمور . والثانية قومية . وليس بالهيّن فصلها عن الاولى ، على انها تبرز بشكل خاص في العهد الأموي نفيه كان للعرب سلطنة عظيمة الشأن تمتد من حدود الهند الى الاندلس . وكان العرب فيها اهل الادارة والسلطان ، بسيوفهم تحفظ الدولة والى خزائنهم تجبى الاموال . واما النهضة الثالثة فعلمية لغوية ، وقد بدأت بالنمو منذ ظهور الاسلام وما زالت حتى بلغت عصرها الذهبي في بغداد وبعض الحواضر الاخرى. ويراد بها ما قامت به اللغة العربية يومئذ من نقل العلوم القديمة والتوسع فيها وما عُرف من ازدهار معارفها وآدابها

ومن المعلوم ان العرب فقدوا بعد الامويين مقامهم السياسي الممتاز في الشرق واخذوا بعد العصر العباسي الاول بالتراجع امام سائر العناصر . ولم يلبثوا في الشرق عقب انحلال الخلافتين العباسية والفاطمية ، ان دخلوا في حكم الدول الاعجمية وآخر هذه الدول السلطنة العثمانية التي يمتد حكمها عليهم من سنة ١٥١٦ م الى نهاية الحرب الكبرى ١٩١٨

ولا نرى بين القرن التاسع عشر ما يشير الى يقظة قومية للعرب ، فقد كانت قوميتهم في سبات عميق . واول من حاول ايقاظها لاغراض سياسية محمد علي الكبير (مؤسس البيت المالك المصري) او قل ابنه ابرهيم باشا ، وكان ينوي انشاء دولة عربية مركزها القاهرة[1] لكن مشروعه لم يتم. ولا يظهر ان البلدان العربية التي تؤرخ ادبها الحديث (مصر وسوريا والعراق) تأثرت يومئذ

(١) راجع ما ذكرناه في مستهل الفصل الاول (مقتطف فبراير الماضي) وكذلك تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي (طبع ١٩٣٠) ص ٢٣٣ و ٢٦١

تأثراً جديّاً بهذا المشروع او سعت لتحقيقه، على أن البذرة وضعت في الارض وترك للزمان إنباتها

بقي الحال كذلك الى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر، وكانت مصر قد استقلت بشؤونها الداخلية عن الدولة العثمانية، والنهضة العلمية قد بدأت في سوريا ولبنان بتنشيط بعض اعلام الحكّام كرشد باشا ومدحت باشا [1] واضرابهما، فنهيأ من كل ذلك بواعث لحركة ادبية تعبّر عن احلام العرب وخواطرهم القومية. ومن هذا القبيل جملة من القصائد والخطب الوطنية التي كان لها اثر يذكر في تخمير الافكار واذكاء الروح القومية وسنذكر شيئاً منها بعد

ومن ظواهر تلك اليقظة القومية نشوء جمعيات غايتها المطالبة بحقوق العرب في السلطنة العثمانية والحضّ على إنهاضهم كالجمعية التي تأسست سنة ١٨٨١ باسم « جمعية حفظ حقوق الملّة العربية » وقد نشرت نداء الى العرب من مسلمين ومسيحيين تحت عنوان « يا ناعي الامة العربية » تدعوهم فيه الى الاتحاد والمطالبة بالحقوق القومية [2] ويبدأ هذا النداء بمخاطبة المسلمين فيلفت نظرهم الى ظلم تركيا ويختم ذلك بقوله —

« فأين انتم واين هم؟ من منكم اليوم امير ومن منكم اليوم وزير ومن فيكم اليوم مدير؟ بل كل واحد منكم فقير، وكبيركم مثل صغيركم حقير، والمال والآمال بأيدي الترك الخ » ثم يلتفت الى المسيحيين فيقول لهم —

« اتحدوا مع المسلمين واستعدوا لنوال حريتكم من المتحدين فان الترك يخشون بأسكم فلا يستعبدونكم ولا يتهكون حرمتكم خوفاً من الفتائل. فاتحدوا بقلب مع اخوانكم المسلمين فان مرجع مصالحكم الى واحد »

ويظهر ان بعض ذوي المصالح من الاتراك كانوا يظاهرون العرب، فقد ذكرت جريدة المشير ان جماعة من شبان العرب والأتراك اجتمعوا في باريس لتأسيس جمعية عربية وغاياتها [3]

١ — ان يدافعوا عن حقوق العرب جميعاً مهما تباينت مذاهبهم

٢ — حفظ الامة العربية تحت ظلّ الراية العثمانية في وضع قانون اساسي للخلافة

٣ — ان يساوى بين العرب والترك في كل شيء

٤ — اجراء الاصلاحات الواجبة بالطريقة الوافقة (اي بالفعل)

٥ — استقلال كل ولاية من الولايات العربية بمعاليها وتخصيص ولايتها بوالٍ عربي او معاون عربي. (وهو كالنظام اللامركزي الذي كان يسعى اليه الاصلاحيون قبيل الحرب الكبرى كما سنرى بعد)

ويلوح لنا ان هذه الجمعية هي نفس الجمعية التي يذكرها سيمبونكو في جريدة الجورنال

(١) رشد باشا كان والياً على سوريا سنة ١٨٦٣ — ٦٨ ومدحت بعده بقليل (٢) جريدة المشير ٢٩ مايو ١٨٩٢ المشير ١٩ ديسمبر ١٨٩٦

الفرنسية اذ يقول [١] « في العام ١٨٩٥ بدأت حمّى الاستقلام بالارتفاع عند ما تأسست في باريس عصبة الوطن العربي وكان لهذه العصبة قاعدتان جوهريتان هما التحرّر من الاجانب واتحاد البلدان العربية تحت سلطة موحّدة ورزمية »

ولعلّ عصبة الوطن العربي هي الجمعية الوطنية العربية التي يذكرها الاعظمي في كتابه « القضية العربية »[٢] رسواء صح ذلك ام لم يصح فالواقع ان العرب اخذوا منذ ايام السلطان عبد العزيز يتنبهون الى حقوقهم ويطالب احرارهم بها، وقد تركوا لنا من آثارهم الادبية في العهد السابق لدستور ١٩٠٨ ما لا يترك مجالاً للشك في ذلك

على ان هذا التنبه لم يبلغ بهم يومئذ مبلغ الرغبة الجدية في الانفصال عن تركيا وجل ما كانوا يطلبونهُ ان يناولوا حقوقهم في الدولة . وعلى ذلك يقول المقطم سنة ١٨٩٤ بعد ان يذكر النسبة العددية بين العرب والاتراك [٣] — « ان العرب مظلومون من حيث الادارة والمناصب وان جلالة السلطان لو علم الحقيقة لانصف العرب ونحن لا نشك بحسن نية السلطان ولكننا نشك في أن هذه الحقائق تصل اليه » . ويتضح من هذا القول تصريح خليل غانم ، مبعوث سوريا في المجلس النيابي الاول (ايام مدحت) وأحد مؤسسي جمعية تركيا الفتاة في باريس ، اذ قال [٤] — « ولا نطلب انفصال العرب عن الاتراك لان ذلك يؤول الى الخراب والاندثار . بل نطلب وتتمنى من صميم الفؤاد انضمام الملتين بل ادغامهما الواحدة بالاخرى بحيث تكونان امة واحدة ، ولكن على شرط المساواة في الحقوق والواجبات »

وهذه الروح المسالمة تتجلى في اقوال جمهرة النيابيين من ابناء العربية . على ان منهم من لم يقف هذا الموقف المسالم بل نراه يتطرف الى درجة التهجم على الدولة وتعمّا بشتى النعوت الذميمة . ويغلب ذلك في الصحافة الخارجة عن دائرة النفوذ التركي . او في بعض الاوساط الخاصة المشبعة بروح العداء للادارة الحميدية . واكثره من قبيل الانفعالات النفسية التي كانت تثور في نفوس الشبيبة وهي عادة عنيفة متطرفة . فلما تنظر في الامور من كل وجهاتها لتميز بين الغث والسمين وتعرف الصحيح من الفاسد . ولكنها على كل حال صادقة . وبرغم تطرفها ، وبرغم تسفلها ترسم لمؤرخ الادب صورة جلية ناحية من نواحي تلك البيئة السياسية

(البوادر القومية الاولى في الادب العربي) ظهر في اصيل القرن التاسع عشر نخبة من احرار الكتبة والشعراء ، وأكثرهم كما ذكرنا في فصل سابق ، من دعاة الاصلاح العام للدولة العثمانية . على ان الذي يهمنا هنا هو ذلك الادب القومي المتصل مباشرة بالحركة العربية او بالاسباب

---

(١) عن صوت الاحرار (بيروت) ٣٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٣٧ (٢) طبع ١٩٣١ ص ٤٨ (٣) المقطم عدد ١٧٢٨ (٤) المشير ٢٥ يناير (ك ٢) ١٨٩٥ (راجع سيرته في تاريخ الصحافة لطرازي ج ٢)

التهذيبية لها . ويخرج لنا من رجاله ثلاثة نرى في نشأتهم أصدق مثال لتلك الحركة . وهم ابراهيم اليازجي . وعبد الرحمن الكواكبي . ونديب اسحق . فلننظر في كل منهم وفي الدور الذي قام به

(اليازجي ١٨٤٧—١٩٠٦) ولقد يعجب البعض لزجنا ابراهيم اليازجي في هذا المقام وهو المعروف بالتشبب اللغوي والبعد عن تيار السياسة . على ان الذي يطالع شعره في أبان شبابه يرى فيه عربيًّا شديد النزعة القومية . ودليلنا على ذلك بعض قصائده التي نظمها (وهو في نحو العشرين او بعدها بقليل) فأحدثت في نفوس الناس هزة لا يزال اثرها الى الآن . ومنها ثلاث قصائد أولاها قصيدة انشدها سنة ١٨٦٨ في الجمعية السورية ومطلعها [1] —

سلامٌ ايها العربُ الكرامُ وجاد ربوع قطركم الغمامُ
لقد ذكر الزمان لكم عهوداً مضتْ قدماً فلم يضع الذمام

ويتقدم الى وصف مجالس العلم وأربابها ثم يعود الى ذكر العرب فيقول مفاخراً : —

وما العُرب الكرام سوى فصال لها في أحفن العَلياء مقامُ
لعمرك نحن مصدر كل فضلٍ وعن آثارنا أخذ الانامُ
ونحن اولو المآثر من قديم وإن جحدت مآثرنا اللئامُ

ويأخذ من هنا بتعداد امجاد العرب الأول في العراق والشام والحجاز واليمن والاندلس ويختم ذلك بقوله —

ولسنا القائلين بكل هذا وليس لنا بمروته اعتصامُ
ولكنا سنجهد للعالي الى ان يستقيم لنا قوامُ

والقصيدة الثانية مائية وهي تلهب حماسة ومطلعها [2] —

تنبهوا واستفيقوا ايها العربُ فقد طمى السيل حتى غاصت الركبُ
قيمَ التخلف بالأمال تخدعكم وانتم بين راحات الفنا سَلَبُ
كم تظلمون وتسمو تفتخرون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

ومنها فشمّروا وانهضوا للامر وابتدروا من دهركم فرصةً ضنّت بها الحقب
لأنتم حضرتي وكم نسيتم ذمامي ضيعتم ما تعلّمتم من الحقب

ثم يشير الى الاتراك فيقول : —

سلاحهم في وجوه القوم مكرهمُ وخير جندهم التدليس والكذبُ

(١) وجد الآداب العربية في القرن التاسع عشر للمؤلف ٢ — ٣٠ (٢) راجع نصها في المشير ٢٥ ابريل ١٨٩٦ وفي مجلة الاصلاح (نيويورك) ٤ — ٤ وفي القصيدة العربية للاعظمي ١ — ٤٣ . ولا يذكر المشير اسم ناظمها . وتجدها في سرحان ٧٣ في أحد مشائخ المسلمين . أما — المصادر ومنها زيدان في تراجم مشاهير الشرق ٢ — ١٩٠ فتتفق على ان صاحبها اليازجي

لا يستقيم لهم عهدٌ اذا عقدوا ولا يصحُّ لهم وعدٌ اذا ضربوا

وتأخذه الحماسة القومية فيصيح :

بالله يا قومنا هبُّوا لشأنكمُ فكم تناديكم الاسفار والخطبُ
ألستم من سطوا في الارض واقتحموا شرقاً وغرباً وعزوا أينما ذهبوا
فما لكم ويحكم أصبحتم همَلاً ووجه عزّكم بالهون منتقب
لا دولةٌ لكمُ بشتدُّ أزركمُ بها ولا ناصرٌ للخطب يُنتدب
أقداركم في عيون الترك نازلةٌ وحقُّكم بين أيدي الترك مغتصب

وكلُّها على هذا النمط من اثارة الحفائظ والعصبية الجنسيّة

أما الثالثة فهي النسبة المشهورة . قال سليم سركيس : « ان الذي تولى نشرها في دمشق جمعية نظمت ايام مدحت باشا . وقد كان لنشرها رنّة في البلاد فارسلت التلغرافات الى الاستانة وازداد عدد البوليس السرّي والفت الحكومة القبض على كثيرين »[1] . ولما كانت قد نشرت كاختها البائية غفلاً من التوقيع فقد اختلف في ناظمها على ان أكثر المصادر تعزوها الى البازجي وهي قصيدة طويلة قد تزيد على الستين بيتاً وحاك بعضها[2]

دعْ مجلس القيد الاوانسْ وهوى لواحظها النواعسْ
ومنها أي النعيم لمن يبيت على بساط الذلّ جالسْ
ولمن تراهُ بائساً أبداً لذيل الترك « بائس »
ولمن أزمّته بكفّ عداه يُظلمُ وهو آيسْ
ولمن تباع حقوقه ودماؤه بيع الخسائسْ
ولمن يرى أوطانه خرباً كاطلال دوارسْ

وهنا يقف الشاعر على طول البلاد ويعدد امجادها الغابرة ثم يقول : —

فالترك قومٌ لا يفوز لديهم الاّ المشاكسْ
أولستم العرب الكرام ومن هم الشمّ المعاطسْ
فسيوفكم نفاظم ناراً تروّع كل قابسْ

ويدعو العرب الى الاتحاد منددّاً بالشقاق والتعصب الديني ومشيراً في نفوس العامة ثم يقول :

ساد الفساد بهم فسادَ الترك فيه بلا مماكسْ
كم تأملون صلاحهم ولكم فساد الطبع مائسْ
ويغركم برق الغنى خبلاً وليل اليأس دامسْ

(١) سر مملكة ٦٧ (٢) راجع نصها في سر مملكة ٦٤

عمّت قبائحهم فأضحت لا تحيق بها الفهارسْ
حانٌ بها طاب التبسم للـــوغى والموتُ عابسْ
وحلا بها سفك الدماء فسفكها للجور حابسْ

ولم تكن هذه النفثات الشعرية سجع وحدها في تلك العهود بل ظهر مثلها كثير في البلاد العثمانية والمهاجر . وكلها تنم على تخمير قومي أحدثتهُ الاحوال الجديدة في نفوس الشبيبة لذلك العهد

(عبد الرحمن الكواكبي ١٨٤٩ — ١٩٠٢) كان هذا الاديب الحلبي اصلاحيًّا حرًّا . وقد اوصلتهُ نزعته الحرة إلى السجن . ثم الى هجرة تركيا والطواف في افريقيا وبلاد العرب والهند[1] . وله كتابان معروفان هما «طبائع الاستبداد» و «أم القرى» والاول دعوة جريئة الى الحرية والتخلص من قيود العادات الاجتماعية المضرة . اما الثاني ، وهو الذي يهمنا هنا ، فمن النواحي الفعالة في ايقاظ الشعور القومي بين العرب ، اذ هو يدعو الى خلافة عربية مركزها الجزيرة العربية[2] ويسرد لذلك اسبابًا كثيرة نذكر منها ما يلي[3] —

(١) عرب الجزيرة هم مؤسسو الجامعة الاسلامية لظهور الدين فيهم

(٢) عرب الجزيرة اقوى المسلمين عصبية وأشدهم أنفة لما فيهم من الخصائص البدوية

(٣) لغتهم اغنى لغات المسلمين في المعارف ومصونة بالقرآن الكريم من ان تموت وهي اللغة العمومية بين كافة المسلمين

(٤) والعرب أعرف الامم في أصول الشورى وفي الشؤون العمومية

وليس من شأننا في هذا المقام ان نشرّح نظرياته اثباتًا او تجريحًا وانما نحن نعرضها تدليلاً على ما كان يختلج في بعض النفوس يومئذٍ واشارة الى تلك الخواطر القومية التي تركت اثرها في الادب العربي

وقد اجمع الكواكبي والامة على وصفه بمكارم الاخلاق والتشغف بالحرية والاصلاح والجرأة على الجهر برأيهِ مفيداً البلاد . وذهب بعضهم الى نقد عقله ومرارة لهجته قال الطباخ[4] «وليس غليان دم الشباب في مؤاده وفتكه ، وتلك النفس المفطورة على الاباء المتعشقة منذ الطفولية لمحاسن الاصلاح المتطلعة اليه تطلّع الاسد الى فريسته هي التي أهابت به ان يطلق لجواد قلمه العنان في هذا الميدان ، وحال حبّه الشديد لاوطانه وشغفهُ العظيم بانتظام احوال بلاده بينهُ وبين التطلع الى ابعد ، والالتفات الى ما كان حوله فكبا براعه ، ونكل جواد كبوة وكان ما كان ، والامور مرهونة بأوقاتها»

وكيفما كان الامر فان الكواكبي كما قال المقتطف[5] «من كبار رجال النهضة الحديثة

(١) راجع سيرته في الجزء الاول من تراجم مشاهير الشرق لزيدان — وفي اعلام النبلاء للطباخ ج ٢ . وبحاثي المقتطف واشهرها (سنة ١٩٠٢) (٢) ام القرى ١٢٢ (٣) ام القرى ١٦٠ (٤) اعلام النبلاء (حلب ١٩٢٦) ٧ ص ٥٢٤ (٥) مج ٢٧ — ٦٢٤

في هذه الديار الاّ ان المحيط لم يساعده والاجل لم يمهله حتى يتم مقاصده السياسية والدينية . على ان النغمة التي ضرب عليها قد التقطت بعض انامل . ولو لم يهبط مصر لكان دفن مع من دفن في تلك البلاد (اي المثانية) ولم يُعرف عنه ولا فضله »

فالكواكبي ، كما يتبين لنا من اقواله واعماله ومن آراء اهل الثقافة فيه ، عامل قويّ من تلك العوامل التي حرّكت نفوس الناطقين بالعربية ووجّهت انظارهم الى اصلاح حياتهم القومية وتعزيز منزلتهم السياسية

(اديب اسحق ١٨٥٦ — ١٨٨٥) ولم يكن اديب من المناوئين للعثمانية ، وليس في ادبه ما يشمّ منهُ روح الثورة على نظامهم السياسي . على ان فيه تلك الجراثيم القومية الحديثة التي تغلب على ادب الاحرار لذلك العهد . واذا كان لا يهاجم الحكومة العثمانية كما يفعل الكواكبي فهو يجاريهم في الدعوة للقومية العربية والكرامة الوطنية . والذي يبرز في أدبه دأبه على تحريك الروح الشرقية وتعزيزها . فهو يناضل عنها في مصر وسوريا ، وهو في طليعة المناصرين للاحزاب الوطنية الرافعين لواء الحرية . ومن الطبيعي ان يكون في رسالته الشرقية ما يرغب مواطنيه في احترام انفسهم باحترام لغتهم وتاريخهم . ومن أمثلة ذلك قوله من خطاب مشهور بموضوعه دولة العرب[1]

« شعلة سرتْ من الحجاز فأنارت الشام والعراقين ومصر والمغرب والهند واتصلت بأطراف الفرنجة فملأتها نوراً وناراً . فهي بنورها تستضيء ومن نارها تقتبس » وبعد ان يذكر فتوح العرب يقول على طريقته الخطابية : —

« فسارت اسود رجالها على طيور خيولها تطوي الصحارى وتقطع الفدافد ، حتى نطحت برؤوسَ عزمها شرفات الايوان ، ونسرت من الشرق فسر الرومان ، ونشرت على مصر اعلامها وضربت في الاندلس خيامها »

ويأخذ من هذا بمذابة العرب الأوّل بعرب اليوم مهيباً بهؤلاء الى الاتحاد ، داعياً اياهم الى تلافي حالهم قبل فوات الاوان . ويقترح لهذه الغاية اجتماعاً عربيًّا يتذاكرون فيه شؤونهم ويطالبون بحقوقهم . وكأنهُ شعر بتشاؤم البعض او حذرهم من مثل هذا الاجتماع فقال منشطاً ومثيراً لهممهم

« أيحسبون ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يحسبون أن يذهب ذلك الاجتماع سدى . أوَ لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع مؤهّلاً عن المقاصد الدينية ، منحصراً في المصلحة الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من اكثر النحل العربية ، يزلزل الدنيا اضطراباً ويستميل الدول جذباً وارهاباً ، فتعود للعرب الخالة التي ينشدون والحقوق التي يطلبون »

---

(١) راجعه في مجموعته (الدرر) ص ٢٠٠ — ٢٠٣

وليس هذا الكلام اول ما اداه من الرسالة العربية وآخره بل في تضاعيف اقواله كثير مما يوقظ النفوس ويثير النخوة القومية.

ومن الخطأ أن نحصر هذا العمل التحضيري في اولئك الثلاثة فقد كان مثلهم كثيرون، كالشيخ يوسف اليهاني، ونجيب العازوري اللبناني، وقد اصدر هذا الاخير سنة ١٩٠٥ كتاباً سماه يقظة الامة العربية استحث فيه العرب على استرداد حقوقهم المهضومة [١] وكالشاعر المشهور الشيخ نجيب الحداد وهو القائل من قصيدة [٢] —

آن الاوان لان اخاطر بالدم ... من لم يخاطر بالدما لم يسلم
أجزيرة العرب التي احببتها ... كم من اكفّ قد رمتك بأسهم
امست أكف الترك فيك فغادروا ... في كل قطر فيك نهراً من دم
قتلوا رجالك واستلوا من بني ... فبقيت صرعى لليدين وللفم
وغدا العراق مع الحجاز غنيمة ... وبلاد نجدٍ سيئة المتقسّم
فليتقذ الله الذي جنوده ... وليحفظ العرب التي لم تأثم

وقد ادرك هذه الطبقة طبقة متأخرة كان لها يد كبيرة في ايقاظ الروح القومية وسيرد ذكرهم في غير هذا المقام

بمثل هؤلاء الرواد القويين من كتبة وشعراء اخذت النفسية العربية تستيقظ من سباتها العميق. فلم يكد فجر القرن العشرين يتنفس حتى كانت العاطفة القومية قد اخذت تحرك القلوب والاقلام. وكان لها في الادب اتجاهات ظاهرة اظهرها تلك المفاخرة بالامجاد السالفة. وتلك الغيرة الملتهبة على اللغة الوطنية والتشكي من اهمالها. كقصيدة حافظ ابراهيم « رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي » ومنها ما جاء على لسان اللغة شاكية مما ألمّ بها —

انا البحر في احشائه الدر كامنٌ ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي
ارى لرجال الغرب عزّاً ومنعةً ... وكم عزّ اقوام بعزّ لغات
سقى الله في بطن الجزيرة اعظماً ... يمرّ عليها الدهر تلو قرون
حفظنَ ودادي في البلى وحفظتهُ ... لهنّ بقلبٍ دائم الحسرات
وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بذلك الاعظم النخرات
ارى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير اناة

(١) النهضة العربية للاعظمي ١ — ٤٨ (٢) اوردها الاعظمي في كتابه ١ — ٤٣ ولم نجدها في ديوانه ولعلها من جملة ما كان ضائعاً من آثاره يوم نشر الديوان

ايهجرني قومي عفا الله عنهمُ الى لغة لم تصل برواة
سرت لوثة الاعجام فيها كما سرى لعاب الافاعي في مسيل فرات

والقصيدة كلها على هذا المنوال من تعظيم العربية وذمّ المعرضين عنها الراغبين في اللغات الافرنجية (١)

ومثلها قصيدة لمصطفى صادق الرافعي موضوعها اللغة العربية والشرق وفيها يقول

امٌّ يكيد لها من نسلها العقبُ ولا نقيصة الاّ ما جنى النسبُ
كانت لهم سبباً في كل مكرمة ورم لنكبتها من دهرها سببُ

ومنها في تقلّب الايام على هذه اللغة :

أتى عليها طوال الدهر ناصعةً كطلعة الشمس لم تعلق بها الريبُ
ثمّ استفاضت ديباج في جوانبها كالبدر قد طمست من نوره الشهبُ
ثمّ استضاءت فقالوا الفجر يعقبهُ صبحٌ فكان ولكن فجرها كذبُ
ثمّ اختفت وعليا الشمس شاهدةٌ كانها لمنة في الجوّ تلتهبُ
كان الزمان لنا والسن جامعة فقد غدونا له والامر ينقلبُ

ثم يلتفت الى طلاب الادب الاجنبي فيقول مؤنباً

اتترك الغرب يلهونا بزخرفه ومشرق الشمس يبكينا وينتحب
وعندنا نهرٌ عذبٌ لشاربهِ فكيف نتركه في البحر يشربُ
فهل لضيّع ما ابقى الزمان لنا ونقض الكفّ لا جدٌ ولا حسب
إنّا اذن سبّةٌ في الشرق فاضحة والشرق منّا وان كنا به خربُ

ويختم القصيدة بنشوة فخر فيقول

اذا اللغات ازدهت يوماً فقد ضمنت للعرب ايّ فخار بينها الكتبُ
وفي المعادن ما تمضي برونقه يدُ الصدا غير انْ لا يصدأ الذهبُ

والمثال الاخير القصيدتين كثيرة في الادب العربي ومصدرها كما ذكرنا غيرة قوية نشأت على أثر اليقظة القومية في النصف الاخير من القرن الماضي ولا تزال الى الآن . ويقرن بالغيرة على اللغة ما نظم في ابطال العرب الاقدمين ووقائعهم احياء لسالف المجد وانهاضاً لهمم الهمم . كقول الرصافي من قصيدة مقابلاً بين العرب اليوم والعرب قديماً

لهفي على العرب امست من جمودهم حتى الجمادات تشكو وهي في حجر

(١) ديوانه (١٩٣٧) ج ١ ص ٢٠٣

ابن الجحاجح من يتسمون الى ذؤابة الشرف الوضّاح من مُضر
قومٌ هم الشمس كانوا والورى قمر ولا كرامة لولا الشمس والقمر
راحوا وقد أعتبوا من بعدهم عقباً ناموا عن الامر تفويضاً الى القدر

وقد اتصلت هذه الروح بالجمعيات الادبية في المعاهد العلمية وخارجها فالتهبت بها نفوس الناشئة وأخذوا في بدء القرن الحالي يتغنون بالاناشيد الحماسية . وهاك مثالاً منها نظم ١٩٠٦ في بيروت لاحدى الجمعيات العربية : —

لغة العرب اذكريني واذكري ما فات
كيف نسماك وفيا نفحة الحياة

***

يا بني الشام ومصر وبني العراق
هل نسيتم ذكر عصر طبّق الآفاق

***

كنتمُ فيها تمشّى بهجة الازمان
فلماذا اليوم ترضى حالة الهوان

ولشيوع هذه الفكرة اللغوية والتاريخية وانتقادها في الادب يوعز اسباب شتى منها — (١) اطراد الانتظام السياسي بمصر وظهورها بمظهر دولة عربية متقدمة (٢) اطراد التقدم العلمي والصحافي في الاقطار السورية والعراقية (٣) أن الاتراك برغم تشديدهم التكريمي طلاب الاصلاح كانوا لا يزالون يعتبرون العربية لغة الدين والثقافة الشرقية القديمة ويعدون انفسهم من حماتها وناصريها فلم يظهر منهم في ذلك العهد ما يرغب المتحمسين لها او يثبط عزائمهم

على ان من الانصاف التاريخي ان نقيد هنا القول ان هذا العمل التحضيري الذي سرى في الاوساط الادبية قبل ١٩٠٨ لم يبلغ درجة النضج . ولم يصل الى نفوس السواد من الامة . فكانت العواطف العمومية لا تزال غير منظمة . وكان الادب العربي بين هذه الروح القومية الآخذة في الاستيقاظ ، وما ألفهُ من الجامعة العثمانية المرتبطة بالخلافة جيران لا يدري كيف يسير . فهو بين جهة قومي ومن جهة عثماني — تارة يتغنى بامجاد العرب ، وطوراً يتغنى بامجاد العرش العثماني . وما زال في هذا الموقف الغريب حتى فوجيء بالدستور فذهلت حيرته وسيطر عليه مدة كانت العثمانية الحرّة فيها غايته المنشودة.[1]

(١) وقد بسطنا ذلك في كلامنا على «الناشئة الدستورية»